هذه المقالة خاصة بباب "مقالات" على موقع كلية الآداب والعلوم الإنسانية" بجامعة عبد المالك السعدي. كل الحقوق محفوظة. 1 يونيو 2020.

مدخل حول تاريخ الأركيلوجيا الكلاسيكية بالمغرب

د. محسن شداد

مقدمة عامة:

يعود أصل كلمة "أركيلوجيا" إلى الكلمتين الإغريقيتين *Archaios* وتعني القديم، و*logos* وتعني "علم". واستعمل الكتاب اللاتينيونَ لفظا آخر لما يمكن أن نسميه ب"علم القديم" هو *Antiquitates*. والأركيلوجيا أو علم الآثار بالنسبة للمعاصرين علم يهتم بدراسة المخلفات المادية التي تعود لعصور سابقة، فهو من أهم العلوم المساعدة للتاريخ. وتشمل هذه المخلفات كل الآثار من أطلال مدن وبنايات، ومقابر، وقطع نقدية أو خزفية، ونقوش على الصخر أو المعادن،... وعلى الرغم من تعرضها للخدش أو التفكك أو الانكسار تحت تأثير عوامل طبيعية أو بشرية ساهمت في تشويه ملامحها الأصلية وإخفائها ، فإن التقنيات الحديثة المستعملة من قبل علماء الآثار أصبحت كفيلة باستقراء ما تبقى منها وتوظيفها من أجل التعرف على الجوانب الاقتصادية والسياسية والثقافية للمجتمعات الغابرة. وقد عرف هذا العلم الذي نشأ بأوربا منذ نهاية القرن السابع عشر (تأسيس أكاديمية النقائش والآداب الجميلة بفرنسا سنة 1663) تطورات عديدة مر خلالها من مرحلة البحث عن التحف الفنية النفيسة وإبراز المآثر الضخمة إلى مرحلة الاهتمام بأدق تفاصيل "اللقى" الأثرية البسيطة، واستعمال تقنيات وأدوات متطورة (الآلات المغناطيسية، الطائرة، الإعلاميات الحديثة،...). وقد سجل هذا الميدان منذ القرن 18، تنافس العلماء والرحالة في جمع أخبار البلدان الإفريقية والأسيوية وفي وصف عادات وتقاليد شعوبها ومآثرها القديمة، ثم أصبح هذا العلم بعد ذلك موضع اهتمام الحكومات والدول والمعاهد العلمية والمتاحف والجامعات. وعلم الآثار ينقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية: أركيلوجيا ما قبل التاريخ (العصور الحجرية)، أركيلوجيا فجر التاريخ (عصر المعادن)، الأركيلوجيا الكلاسيكية (الحضارات القديمة) وأركيلوجيا العصور الوسطى.

الأركيلوجيا الكلاسيكية بالمغرب:

إذا ما استثنينا قيام القائد الروماني سرتريوس بنبش قبر البطل الأسطوري أنطي بمكان غير محدد بين مدينتي ليكسوس وطنجة خلال القرن الأول قبل الميلاد (بلوتارك، *سرتوريوس*، 9، 6- 7)، وإشارات الحسن بن الوزان إلى منقبين في ناحية مدينة فاس سماهم بالكنزيين (*وصف إفريقيا*، ترجمة محمد حجي ومحمد الاخضر، الجزء 1، ط. 2، دار الغرب الإسلامي، 1983، ص.274)، فإن بداية الأبحاث الأثرية بالمغرب تعود إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر. فقَد تَضاعَفَت، بتزامن مع ازدياد الأطماع

هذه المقالة خاصة بباب "مقالات" على موقع كلية الآداب والعلوم الإنسانية" بجامعة عبد المالك السعدي. كل الحقوق محفوظة. 1 يونيو 2020.

الاستعمارية الأوربية على بلادنا، أعدادُ الباحثين والمنقبين الذين كانوا يعملون في قطاع الجيش والإدارة أو ينتمون إلى بعثات علمية ودينية تحظى بمساعدة السلطات الاستعمارية. وخلال مرحلة الاستكشاف والتعرف التي قادها العديد من الرحالة والمغامرين (فرنسيين، إسبانيين، إنجليز، ألمانيين،...) تم تأليف العديد من الكتب والمقالات التي تعد لحد الآن مراجع أساسية لدراسة مخلفات المغرب القديم، نذكر من بينها:

Ch. TISSOT, *Recherches sur la géographie comparée de la Maurétanie Tingitane,* Mémoires présentés par divers savants à *l'Académie des inscriptions et Belles-Lettres*, Paris, 1878.

T. De Cuevas, Estudio general sobre geografía, usos agrícolas, historia política y mercantil, administración, estadística, comercio y navegación de Bajaloto de Larache, y descripción critica de las ruinas del Lixus romana, *Boletín de la Sociedad Geográfica*, XV, 1883, pp. 70- 97; 167- 186; 338- 369 et 417- 433.

H. De La Martinière, Notes sur les ruines d'*Ad Mercuri*, *Bulletin du Comité des Travaux Historiques*, 1889, pp. 277- 280 ; Id., Recherches sur l'emplacement de la ville de *Lixus*, *Bulletin du Comité des Travaux Historiques*, 1890, pp. 134- 148.

بعد فرض نظام الحماية الفرنسية على المغرب سنة 1912 أخذ الاهتمام ينصب بصفة خاصة على الآثار الرومانية وذلك لإبراز قِدَم التأثيرات الأوربية الغربية، ولتَسويغِ الاحتلال وإضفاء المشروعية على عمليات الغزو العسكري. ويتضح هذا التوجه في إصدار الجنرال المارشال ليوطي، بصفته مقيما عاما لفرنسا بالمغرب، تشريعات وقوانينَ إدارية تهم الاشتغال بحقل علم الآثار (1912 و1914) وإنشاء مصلحة مستقلة لهذا الميدان، فَعَيَّن القائدَ العسكري لويس شاتلان مديرا عليها منذ 1918 إلى غاية 1941، كما يتبين ذلك من خلال التركيز على موقع "وليلي" الأثري (أول مَن أشار إليه مِن الإنجليزيين هنري بويد وجون ويندوس سنة 1720) الذي حظيَت أشغالُه بدَعم مادي ومعنوي كبير منذ انطلاقها سنة 1915. وقد شارك في أشغال الحفريات مئات الجنود الفرنسيين والأسرى الألمانيين والعمال المغاربة وأسفرت عن إبراز المعالم الكبيرة من المدينة الرومانية من معبد، وقوس النصر، والساحة العمومية، والطريقين الرئيسيين،... وفي سنة 1933 عين شاتلان، ريموند توفنو مساعدا له وكلفه بأعمال البحث بموقع بناصا (سيدي علي بوجنون، عمالة مشرع بلقصيري). وقد تم تعيين ريموند توفنو سنة 1941 مديراً لمصلحة الآثار إلى غاية سنة 1954 حينما خلفه موريس أوزنا (إلى سنة 1962). والحقيقة أن كثيراً من المواقع الأثرية القديمة (موغادور، سلا - شالة،

هذه المقالة خاصة بباب "مقالات" على موقع كلية الآداب والعلوم الإنسانية" بجامعة عبد المالك السعدي. كل الحقوق محفوظة. 1 يونيو 2020.

تموسيدا، غيغا،...) الواقعة بالجزء الخاضع للمراقبة الفرنسية عرفت خلال هذه الفترة اهتماما لم يسبق له مثيل كان من نتائجه الكشف عن رصيد تراثي غني ومعلومات تاريخية تُعدُّ في غاية الأهمية، تعود بنا إلى عصور سبقت وصول العرب المسلمين إلى بلادنا.

أما المنطقة الخليفية الإسبانية، فقَد شهدت هي نفسُها اهتمام الإدارة الاستعمارية بمخلفاتها الأثرية القديمة. ويعود الفضل إلى أحد المغامرين، وهو لويس سيزار د مونطلبان، الذي عين مديرا لمصلحة الآثار منذ 1919، في اكتشاف بعض المواقع (تمودة سنة 1922) وإنجاز أعمال حفر بأخرى (ليكسوس، زليل، تابرناي، امزورة،...) وذلك إلى غاية سنة 1946. غير أن أشغاله هاته، ونظرا لكثير من العوامل (تكوينه العلمي، عدم الاستقرار السياسي، والاضطرابات الأمنية،...) لم تَرْقَ إلى مستوى كبير. ويبدو أن نجاح الجنرال فرانكو في إقرار نظامه الديكتاتوري قد شكل منعطفا إيجابيا حاسما في تطوير البحث الأثري بشمال المغرب. فمباشرة بعد نهاية الحرب الأهلية الإسبانية، تم تعيين بلايو كنترو أتاوري مفتشا عاما لمصلحة الآثار ومحافظا للمتحف الأثري الجديد بتطوان (1940- 1946). غير أن هذا الباحثَ ذا التجربة الطويلة في ميدان الحفريات وإدارة الأنشطة الأثرية بالجنوب الإسباني، ونظرا لتقدم عمره ومرضه المزمن اقتصر على الاشتغال الميداني بموقع تمودة حيث أشرف على خمس ورشات منتظمة أعقبها بتقارير مفصلة منتظمة حول النتائج التي توصل إليها. بعد وفاته، خلفه في كلا المنصبين مكيل طراديل (1948- 1956)، وهو شاب طموح، متمكن من التقنيات والمناهج الحديثة وتربطه بكثيرٍ من الباحثين الأثريين الأوربيين علاقاتٌ وطيدة، بحكم اهتمامه بمسألة التوسع الفينيقي في أقصى الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، فقد ركز أعماله بموقع ليكسوس الأثري (أشار إليه الرحالة الألماني هنريك بارت سنة 1845) حيث أنشأ ورشات حفر متعددة أسفرت عن اكتشاف كثير من المخلفات (تماثيل برونزية، فسيفساءات تزين أرضية بعض المباني،...) وأنجز عشرات الاستبارات مكنته من وضع تحقيب تاريخي مفصل لهذا الموقع. وقد رافقَ ذلكَ قيامُه بعمليات مَسح أثري سمح له بالتعرف على العديد من المواقع (أمسا، سيدي عبد السلام دالبحر، الزهارة،...) وبحفريات شملت مواقع شتى (البنيان، الصوير،...). ويجب التذكير أيضا بنجاحه في تنظيم أول مؤتمر دولي لعلم الآثار احتضنته مدينة تطوان سنة 1953.

وباعتبار أن الوضعية القانونية لمدينة طنجة التي كانت مختلفة عن المنطقتين السالفتين الذكر، فقد شهدت أنشطة البحث الأثري بها منحى مغايرا لم يخضع لقوانين منظمة ولا لمراقبة إدارية إلى حين استرجاع المغرب استقلاله. فمنذ تأسيس البعثة العلمية الفرنسية بالمغرب سنة 1903، باشر بعض الباحثين أمثال جاستون بيشه، جورج سالمون وإدوارد ميشو-بلير وهنري كوهلر عمليات التنقيب والحفر

هذه المقالة خاصة بباب "مقالات" على موقع كلية الآداب والعلوم الإنسانية" بجامعة عبد المالك السعدي. كل الحقوق محفوظة. 1 يونيو 2020.

بمواقع متعددة (مغارات رأس أشقار التي تعود لعصور ما قبل التاريخ، مقبرة المريس التي تنتمي لعصر المعادن، ضريحي مغوغة الصغيرة ورأس سبارتيل، مقبرة تل مرشان، القبور الرومانية ببوخشخاش،...). كما تم سنة 1910 اكتشاف الحمامات الرومانية غير بعيد من مركز حجر النحل الفاصل بين منطقة طنجة والمجال الخاضع للمراقبة الإسبانية. وعند مطلع الخمسينيات أشرفت إحدى الجمعيات المدنية (Société d'Histoire et d'Archéologie de Tanger) على مزيد من الأنشطة، خاصة أن أحد أعضائها المرموقين لم يكن سوى الإسباني سيزار لويس د مونطلبان. فقد قامَ، بمعية الأميرة الثرية مارتا ماري ريسبولي، بورشات بحث بكل من موقعي كوطا حيث تم اكتشاف معمل مكتمل المرافق لتمليح السمك وبمنطقة الغندوري حيث أبانت الحفريات عن وجود معسكر روماني. وعند الستينيات من القرن الماضي، تولى الفرنسي مشيل بونسيك مهمة الإشراف على مصلحة الآثار بشمال المغرب، فأولى اهتماماته -إضافة إلى موقع ليكسوس- بالمجال الطنجي بصفة خاصة وجمع معلومات أبحاثه القيمة في كتاب يحمل عنوان: *Recherches archéologiques à Tanger et dans sa région*, 1971.

انطلاقا من سنة 1975 تمت إعادة هيكلة مصلحة علم الآثار بالمغرب وتم إدماج أطر مغربية لتسيير ورشات الحفريات المشتركة مع الباحثين الأوربيين. في هذا السياق، لا بد من الإشارة إلى الأعمال التي احتضنها موقع زليل (دشر الجديد، القريب من سوق أحد الغربية) تحت إشراف الباحثة المغربية نعمة الله الخطيب بوجيبار والفرنسي موريس لونوار (1976- 1997) والتي نجحت في تكوين نخبة من علماء الآثار المغاربة. إلى جانب ذلك، تم إنشاء المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث بالمغرب وأسندت مهمة تسييره منذ سنة 1986 وإلى غاية سنة 2005 إلى الأستاذة جوديا حصار بنسليمان. ويمكن القول إن علم الآثار عَرفَ منذ هذه الفترة طفرةً نوعية وعددية من خلال مشاريع البحث التي تم إنجازها في إطار بعثات مشتركة أو مغربية محضة، أبان خلالها المتخصصون المغاربةُ عن تمكنهم من أساليب البحث وأدواته في هذا الحقل. من بين هذه الأبحاث نشير على سبيل المثال لا الحصر إلى ما يلي:

- Hassini H., Aranegui Gasco C., *Lixus. Sector del Algarrobo y del área « cámaras de Montalbán »* ; - El Khayari A., López Pardo F., *Mogador. Sondeos estratigráficos y prospección arqueológica del litoral* ; - El Khayari A., Brouquier-Reddé V., Les monuments religieux du Maroc antique ; - Kbiri Alaoui M., Bridoux V., Recherches archéologiques franco-marocaine à Kouass; - Kbiri Alaoui M., Callegarin L., Rirha, site antique et medieval du Maroc I ; - Akerraz A., Limane H. et Rebuffat R., Bassin du Sebou ; - Akerraz A., Sraj A., Vismara C., Carte archéologique du Maroc, le Rif oriental.

هذه المقالة خاصة بباب "مقالات" على موقع كلية الآداب والعلوم الإنسانية" بجامعة عبد المالك السعدي. كل الحقوق محفوظة. 1 يونيو 2020.

وإذا كان علماء الآثار قد اعتمدوا كثيرا على النصوص التاريخية القديمة (الإغريقية، اللاتينية،...) واستفادوا منها خاصة لتحديد مواقع المدن المندثرة (أهم مثال على ذلك نجاح الباحث الألماني هنريك شليمان سنة 1870 من التعرف على موقع طروادة الأسطوري اعتمادا على المعلومات التي استقاها من ملحمتي الشاعر الإغريقي هومير)، فقد تفرعت عن هذا العلم تخصصات دقيقة أضفت عليه أهمية كبيرة:

- علم المسكوكات la numismatique : وهو يهتم بدراسة القطع النقدية القديمة. له أهمية كبرى في إعطاء صورة واضحة عن المستوى الاقتصادي لمجتمع معين، وذلك من خلال التعرف على نوعية المعدن المستعمل ووزن القطعة. ويمكن الاستفادة أيضا من الرسوم والرموز التي نقشت على جانبي القطع النقدية، والتي تحيل إلى الأنشطة الاقتصادية للمدينة التي سكت بها. فالقطع المسكوكة بشمال المغرب (طنجة، ليكسوس، زليل، تمودة،...) كانت تحملُ، في الغالب، رسما يدل على اهتمامها بالأنشطة الفلاحية والثروات الطبيعية للمنطقة كعناقيد الكرم، وسنابل القمح وسمك التون. تسمح لنا أيضا بعض الرموز بالتعرف على المعبودات التي كان سكان المنطقة يقدسونها، كما أن بعضاً منها يحمل صور الملوك المحليين والأباطرة الرومان وهو ما يسهل عملية وضع تواريخ دقيقة. من بين المراجع الأساسية التي نشرت نتائج الأبحاث في هذا الميدان، نشير إلى:

- J. Mazard, *Corpus Nummorum Numidiae Mauretaniaeque*, Paris, 1955.

- J. Marion, Note sur la contribution de la numismatique à la connaissance de la Maurétanie tingitane, *Antiquités Africaines*, 1967, pp. 99- 118.

- Id., Les monnaies de Shemesh et des villes autonomes de Maurétanie tingitane au musée Louis-Chatelain à Rabat, *Antiquités Africaines*, 1972, pp. 59- 127.

- علم الخزف la céramologie : اعتمادا على بعض المميزات (شكل الآنية، نوعية الطين، التوقيعات والأختام،...)، يمكن تصنيف القطع الخزفية التي تم العثور عليها إلى: خزف فينيقي يعود تاريخه إلى القرن 8- 7 قبل الميلاد، وخزف قرطاجي، ومن أشهر منتجاته الأمفورات (قارورات ذات عروتين) المعروفة باسم دريسل 18، وخزف محلي، اشتهرت بإنتاجه معامل موقع القواس وعين مصباح وكان يستعمل للأغراض المنزلية ونقل السلع المحلية (السمك المملوح، الزيوت، الخمور،...) في إطار العلاقات التجارية التي كانت تجمع المغرب بالعالم الخارجي (إسبانيا، إيطاليا،...)، ثم الخزف الروماني بما فيه الخزف الكامباني وهو خزف إيطالي ذو برنيق أسود يعود تاريخه إلى منتصف القرن 3 و1 قبل الميلاد، وخزف جنوب بلاد الغال الموجود

هذه المقالة خاصة بباب "مقالات" على موقع كلية الآداب والعلوم الإنسانية" بجامعة عبد المالك السعدي. كل الحقوق محفوظة. 1 يونيو 2020.

في كثير من المواقع الأثرية المغربية، والذي يؤكد ارتباط بلادنا بالتيارات التجارية المتوسطية قبل الاحتلال الروماني، وأخيرا الخزف الإسباني. أما الخزف الإغريقي، فقد كانَ وجودُه نادراً بالمغرب (بعض القطع التي عثر عليها بموغادور تعود للقرنين السابع والسادس قبل الميلاد)، ويعتقد أن وصوله تم عن طريق وسطاء تجاريين (البحارة الفينيقيين والقرطاجيين).

- دراسة النقائش l'épigraphie : انطلاقا من دراسة الكتابات المنقوشة على الصخر أو القطع المعدنية يمكننا التعرف على الظروف السياسية والاجتماعية للسكان. وإذا كانت النقائش المكتوبة باللغتين الليبية أو البونية التي عثر عليها قليلة نسبيا، فتلك المكتوبة باللغة اللاتينية تعد بالمئات. وهي مصدر صريح وموثوق به شريطة أن تتم قراءتها بكيفية سليمة وذلك يستوجب معرفة جيدة باللغة اللاتينية وبأسرار هذه الكتابات وتقنياتها. وقد جمعت في الجزء الثامن من سلسلة جامع النقوش اللاتينية (*C.I.L.*) الذي يُعْنَى بجمع كل النقائش اللاتينية التي عثر عليها بمختلف الولايات الرومانية. وقد تم نشر النقائش التي عثر عليها بالمغرب في مؤلَّفات خُصّصَت لهذا الغَرَض مع تعاليق وشرح مفصل في :

- *Inscriptions antiques du Maroc, I.* Inscriptions libyques par L. Galand - Inscriptions puniques et néopuniques, J. février - Inscriptions hébraïques des sites antiques, J. Vajda, 1966.

- J. Gascou, *Insciptions antqiues du Maroc, 2.* Inscriptions latines, 1982.

الدكتور عبد المحسن شداد

-حاصل على شهادة الدكتوراة في تخصص التاريخ القديم من جامعة بوردو 3 الفرنسية سنة 1995. ويعمل أستاذا للتعليم العالي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بمرتيل – جامعة عبد الملك السعدي منذ 1998.

-له مساهمات عديدة في أعمال ندوات ومؤتمرات وطنية ودولية في تخصص التاريخ والأركيلوجيا ما قبل الإسلامية.

-من إصداراته: "**دليل المدن والمو اقع الأثرية القديمة بشبه الجزيرة الطنجية**"، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمرتيل، مطبعة الحمامة، تطوان، 2018.